جدلية الأنا والآخر في الموسوعات المملوكية
(نهاية الأرب أنموذجا)

الأستاذ **محسن السقا** (*)

مطمحنا في هذه الورقة الوصول في آن معا إلى رصد كيفيّة حضور الآخر في موسوعة مملوكيّة مشهورة [1] وهي **نهاية الأرب** للنّويري (ت 733 هـ) وتقصّي مختلف ردود فعل الأنا وهو يكتب عن هذا الآخر ويحدّثنا عنه. وفي البداية نلمح إلى أنّ الأنا في دائرة ما استنتجناه من المدونة المذكورة، هو النّويري المؤلّف الموسوعي الذي يجسّم قبل كلّ شيء هواجس أمته وطموحاتها وتطلعاتها في فترة تاريخيّة عصيبة تعدّ بلا جدل من أصعب الفترات التي مرّت بها هذه الأمة [2] (تهديد الصليبيين المتواصل وهجوم التتار والماغول على بغداد ثمّ محاولة الاستيلاء على دمشق والشام عموما).

(*) كلية الآداب سوسة (جامعة الوسط - تونس).

(1) راجع : عبد اللطيف حمزة. الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيّوبي والمملوكي، ص 317 - الشكعة - مناهج التأليف ص 732.

(2) عمر موسى باشا - الأدب في بلاد الشام - ص 50، انظر قوله «فالبلاد تجابه خطرين في آن واحد : خطر الفرنجة الذين يريدون الانتقام واسترجاع ما كان لهم من ممالك لاتينيّة وخطر التتار الطامعين الجدد الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقّى قائما من معالم الحضارة الإسلاميّة في مصر والشام».

ولئن تجلّى لنا الأنا واحدا في الموسوعة، فإنّ الآخر بدا متعدّدا، فقد ألفيناه حاضرا في صورة العدوّ الظاهر والخصم الشرس عدوّ الدنيا والدين، الذي يكيد للأمة بمختلف الطرق ويهدّد وجودها بلا هوادة. وقد وجدناه في صورة العدوّ المتخفّي الذي يحترز منه باستمرار ويقرأ له ألف حساب ولكنّه يعيش مع ذلك تحت راية الأنا وتحت وصايته (ونعني به أهل الذمة). ولكنّ الآخر في نهاية الأرب لم يتجسّد على هذا الوجه الهمجي المعادي فقط، إذ بدا مصدر الحكمة والمعرفة والنّبل، فمنه تستقى الدروس والحكم، ومنه تغترف الفوائد والتجارب (حكماء اليونان والهند والفرس والروم...)

إنّ ورقتنا تهتمّ بدرس هذه الإشكالات وتلتزم بالتّالي بفحص جانب من جوانب المسألة التي تعهّدت ندوتكم بالتأمل فيها تأملا متأنيا ضافيا ولذلك وسمناها بجدلية الأنا والآخر في الموسوعات المملوكية، نهاية الأرب نموذجا.

1 ـ نهاية الأرب مدينة للآخر :

لئن باح النويري بالعوامل الشخصية القريبة التي حرضته على تأليف مدوّنته الضخمة والانخراط في الحركة الموسوعيّة المملوكيّة، ذاكرا أنّه يرغب في تجريد كتاب يستأنس به ويرجع إليه [3]، فإنّه أحجم عن ذكر الدواعي البعيدة والخفيّة التي كانت وراء ظهور مدوّنته على ذلك النحو من الضّخامة والكثافة. ويفهم بعد استقراء مصنّفه وربطه بالتيار الموسوعي الرائج آنذاك أنّ عمله لم يكن عملا فرديّا معزولا بقدر ما

(3) النويري : نهاية الأرب ج1 ص 3.

كان تجسيما لحركة واعية بدأت قبله [4] وتواصلت في زمنه [5] واستمرّت بعده [6] فلم يكن النّويري في نهاية الأرب إذن صاحب تجربة فريدة أقامها على غير مثال سابق، وإنّما كان موسوعيّا يكمل عمل أسلافه ومعاصريه من كبار الموسوعيين الذين هالهم ضعف الأمّة وتشتّتها، فبادروا بجمع تراثها وتركيمه في مصنّفات ضخمة تقيه من الضياع وتحفظه من التشتّت قدر الإمكان.

كان الآخر قوّة ضاربة يتمتّع بالدّهاء السياسي والخبرة العسكريّة، فقد قطع الصليبيّون [7] آلاف الكيلومترات واحتلّوا بيت المقدس، فكان ذلك إيذانا بعلوّ كعبهم ونفاذ شوكتهم، واندفع التتار والماغول كالسيل الجارف فحطّموا بغداد وقضوا على الخلافة العباسيّة قضاء مبرما (656 هـ) وعبثوا بالتراث الإسلامي فأحرقوا الكتب والمكتبات وألقوها في دجلة طعاما للماء والنار [8] ثمّ راحوا يهدّدون العواصم الإسلاميّة الأخرى.

ولا يعنينا الآن الإلماع إلى انتصارات المسلمين، لأنّ هذه الانتصارات حدثت فعلا (استرجاع بيت المقدس 589 هـ ، خضد شوكة التتار 698 هـ)، ولكن يعنينا الإلماح إلى أنّ الاستقراء المدقّق للموسوعات المملوكيّة (قسم التاريخ وقسم الأدب) يقودنا إلى استخلاص الحالة النفسية والمعنوية

(4) راجع على سبيل المثال : مباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن إبراهيم والوطواط (ت 718 هـ).

(5) راجع على سبيل التأكّد : لسان العرب لابن منظور (ت 711 هـ)
مسالك الأبصار للعمري (ت 749 هـ)
البداية والنهاية لأبي الفداء (ت 732 هـ)

(6) راجع مثلا : صبح الأعشى للقلقشندي (ت 821 هـ)
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ت 874 هـ)
الخطط للمقريزي (ت 845 هـ)

(7) يخلع النّويري على الصليبيين عبارة الفرنج وهو لم يستنبطها من وحي خياله واجتهاده وإنّما حاكى فيها المؤرخين من الأسلاف والمعاصرين. راجع مثلا النويري وكتابه - أمينة محمد جمال الدين النّويري وكتابه - ص 14.

(8) راجع : محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ج1 ص 106.

التي كان عليها الأنا آنذاك. فقد سرى اليأس في النّفوس ودبّ الإحساس بغياب الطمأنينة واستفحل هذا الهاجس فشمل كلّ الأوساط فعمّ الشّعور بالضعف والإحباط أو ما سمّاه النويري الخذلان [9] وتوقّعت الأمة الشرّ والويلات وهيمن عليها الاعتقاد بأنّ هجمة الآخر ستعقبها هجمات أشدّ، وبأنّ اعتداءه ستتلوه اعتداءات أشنع وأنكر، فليس غريبا أن ينكفىء الأنا على ذاته في محاولة منه لإنقاذ ذاته لأنّ حضارته صارت مهدّدة بالتّلاشي والأفول والانحدار، فأضحت المسألة حضاريّة مصيريّة بحتة. فإمّا أن يكون الأنا (الأمة) وإمّا أن لايكون - إمّا أن يعيش ويستمرّ وإمّا أن يتبدّد ويندثر، فتذهب ريحه ويتشتّت شمله. ومن أجل ذلك تولّد لدى الموسوعيين وعي بضرورة إنقاذ الثقافة الإسلاميّة من مخالب الجهل والوحشية وذلك بتصنيف موسوعات ضخمة تحفظ جماع موروث الأمة في كلّ مجالات الفكر والإبداع [10]. ولضيق المقام نجتزىء بالإشارة إلى عيّنات من عمل الموسوعيين، فقد صرف الوطواط عنايته في **المباهج** نحو جمع ما يتعلّق بالحيوان والنبات والجغرافيا والظواهر الجويّة [11] وتكفّل ابن منظور في **لسان العرب** بالجانب المعجمي، واهتمّ العمري في المسالك بالمجال الجغرافي، وموسوعة نهاية الأرب هي في صميم هذه الحركة وقد أقامها صاحبها على خمسة فنون جوهرية (السماء والأرض، الإنسان، الحيوان الصامت، النبات، التاريخ) وجعل كلّ فنّ منها يحتوي على خمسة أقسام. ثمّ راح يختار من المظان والأمهات (مثل الكامل لابن الأثير (ت 630 هـ) وتاريخ الطبري (ت 310هـ) والطبقات الكبرى لابن سعد (230 هـ) وفقه اللغة للثعالبي (420هـ) والأغاني للأصفهاني (356 هـ) والإحياء للغزالي (ت 505 هـ ...) أجمل النصوص وأحسن المنتقيات، ويودعها في محلّها المناسب فصارت

---

(9) نهاية الأرب ج27 ص 315.

(10) راجع : عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص 315.

وراجع : مقال بلاشير بمجلة الدراسات الشرقية BEO عدد 23 - 1970 ص 8.
عنوانه بعض الخواطر حول أشكال الحركة الموسوعية بمصر وسوريا.

(11) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ص 439.

الموسوعة مجموعة من المصادر تمثّل جماع المادة الموسوعيّة أو جماع مـــــا يمكن أن يسمّى بالأدب الموسوعي [12]. وهذه المادة المصطفاة بعناية هي في نظر النّويري أفضل ما يجب أن ينقذ وأحسن ما يجب أن يحفظ ويخلّد على الدّوام، فهي العيون أو النّفائس أو الدرر [13] المستقاة أساسا من عمل الأسلاف الأفذاذ. وبهذا الاعتبار فإنّ المادة الموسوعيّة المودعة في الموسوعات المملوكيّة عامة ونهاية الأرب خاصّة مدينة للآخر. فلولا الآخر، ولولا الخوف من خطره وشرّه وبطشه لما وجدت هذه المادة الموسوعيّة بمثل ذلك القدر من التنوّع والكثافة.

2 ـ تجلّيات الآخر وردود فعل الأنا عليه :

إنّ الآخر في مدوّنة النويري متعدّد في سنخه وفي أدواره، فهو أوّلا العدوّ اللّدود للأمّة، عداوته سافرة لا مقنّعة، وأهدافه واضحة، تروم القضاء على الأنا قضاء مبرما لا نهوض بعده، ولذلك اتّسمت هجوماته بالعنف والضّراوة والشناعة. والنّويري يورد عيّنات من هذه الاعتداءات وعيّنات من هذه الانتهاكات. فالفرنج (وهم الصّليبيون) يملكون قواعد وقلاعا محصّنة في الشام، ولئن تقلّص خطرهم في عهد السلطان بيبرس وفي حكم السلطان الناصر (ت741 هـ) فإنّهم ظلّوا يمثّلون تهديدا دائما لا يعرف متى يباغت، فقد انتهك على سبيل المثال سكان عكّا من الصليبيين الهدنة سنة 689 هـ وفتكوا بالتجار المسلمين [14] أمّا التتار والمغول فقد زحفوا على بغداد كما المحنا زحفا همجيا فخرّبوها وأسقطوا الخلافة العباسيّة. وإذا كان النّويري لم يعش وقع الكارثة مباشرة فإنّ صدى الهزيمة ظلّ حاضرا في نفسه فسجّلها في مدوّنته واسترسل على امتداد صفحات مطوّلة يصف مظاهر من وحشيّة التتار وتفنّنهم في السفك

(12) راجع أطروحتنا : الأدب الموسوعي، مظاهره ودلالته في نهاية الأرب للنّويري ، إشراف محمد الهادي الطرابلسي ـ كلّية الآداب - منوبة 1996/1995 (بحث مرقون).

(13) اخترنا العبارات التي وظفها المهتمون بالأدب الموسوعي، راجع على سبيل المثال الشكعة، مناهج التأليف.

(14) راجع مقال قلاوون بدائرة المعارف الإسلاميّة (النسخة الفرنسية N.E.I) ج4 ص 506.

والتّقتيل ودوس الحرمات. يقول من جملة ما يقول : «حتّى كان التتار يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق» [15] ويقول «ونهبوا في طريقهم كلّ مدينة وقرية مرّوا عليها ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال ولم يبقوا على شيء» [16] ويضيف في موقع آخر من مصنّفه : «ووضعوا السيف فلم يبقوا على أحد... حتّى شقّوا بطون النّساء الحوامل وقتلوا الأجنّة وكانوا يفجرون بالمرأة ثمّ يقتلونها» [17]، ويعلّق على خبر أورده عن ابن الأثير مؤداه أنّ رجلا من التتار دخل دربا فيه ما يزيد على مائة رجل، فقتلهم واحدا واحدا حتّى أفناهم ولم يمدّ أحد يده إليه، فيظهر امتعاضه الشّديد لتبدد شجاعة المسلمين وانتفاء شعور المقاومة لديهم قائلا : «فوقعت الذلّة على الناس، نعوذ بالله من الخذلان» [18].

وظلّ شبح الهزيمة يسيطر على النفوس والعقول لأنّ التتار والماغول كانوا يطمعون في مواصلة زحفهم والاستحواذ على الشام. ففي سنة 679 هـ اتّجهت جحافل الماغول نحو حلب التّي أخلاها أهلها فدخلها الماغول وأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس [19]. وفي سنة 699 هـ انهزم جيش الناصر محمد بن قلاوون هزيمة مرّة سجّل النّويري بنفسه صداها فقال، ونحن نقتصر على هذه العيّنة : «ثمّ ركب من التتار من لم يشهد الوقعة وحملوا على ميسرة الملك الناصر فانهزمت وكانت الكسرة» [20].

(15) نهاية الأرب ج 27 ـ 308.
(16) المرجع نفسه ص 313.
(17) المرجع نفسه ص 319.
(18) المرجع نفسه ص 315.
(19) أ. محمد جمال الدين النويري وكتابه (مرجع مذكور) ص 6.
(20) نهاية الأرب ج 27 ص 411.

وفي المغرب الإسلامي حقّق الآخر انتصارات حربيّة وحضاريّة ساحقة، فقد اضطرّ المسلمون في جزيرة أقريطش إلى التنصّر خوفا من الموت جوعا وعطشا [21] واستولى الفرنج على صقلية [22] وتبدّدت إمارات الطوائف الواحدة تلو الأخرى في الأندلس، ولم تبق إلاّ الجزيرة الخضراء وما يليها [23].

ولئن سجّل النّويري هذه الأحداث بقلم متأثّر ينمّ عن تفجّعه على ضياع نفوذ المسلمين وتشتّت شملهم ووصولهم إلى درجة قصوى من التقهقر والخذلان تنذر بذهاب ريحهم، فإنّه عبّر عن ردود فعل أخرى تتجاوز هذه السلبية، من ذلك أنّه يكنّ للفرنج عداء كبيرا ويلعنهم أنّى ذكرهم [24]، وينتشي بهزيمة الاخر ويرى فيها علامات تراجعه وكسره [25]، ولذلك لاحظنا لديه استبشارا بعملية الإنقاذ أيّا ما كان نوعه، فقد ابتهج باحتضان المماليك للخلافة العباسيّة [26] وانشرح لهذا العمل السياسي دون أن يبحث عن حوافزه الحقيقيّة لأنّ ما يهمّه في المقام الأوّل هو عودة الروح إلى الإسلام. وأثنى على السّلاطين المماليك لا سيّما الناصر محمد بن قلاوون الذي استطاع أن يضع حدّا للتهديد الماغولي والتتاري. وحرص على أن يكون استبشاره بالاسترداد لا يقتصر على القول دون الفعل، فشارك في محاربة الماغول مع جيش الناصر عندما أتيحت له الفرصة ولبس عدّة الحرب [27] وترحّم على الحكّام المسلمين الذين

(21) نهاية الأرب ج 24 ص 387 ـ 388.
(22) المصدر نفسه ج 24 ص 353.
(23) المصدر نفسه ج 24 ص 389 ـ 390.
(24) المصدر نفسه.
(25) أبدى ابن تغري بردي نفس الموقف تقريبا، فقال في النجوم الزاهرة ج 8 ص 123 «وتساقطت عبرات الناس فرحا ودقّت البشائر بسائر الممالك، وكان هذا اليوم يوما لم يشهد مثله».
(26) نهاية الأرب ج 23 ص 326 ـ 327.
(27) أ. محمد جمال الدين. مرجع مذكور ص 45.

آمنوا بالجهاد واجتهدوا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أيدي الفرنج[28]، وانتشى بالفتنة التي حصلت بين التتار والفرنج لأنّها في صالح المسلمين، تكسّر في نفس الوقت شوكة عدوّين لدودين. يقول مثلا : «وفي سنة سبع وسبعمائة وردت الأخبار إلى الديار المصرية أن طقطا نقم على الفرنج الجنوبية الذين بقرم وكفار البلاد الشمالية لأمور نقلت إليه عنهم منها استيلاؤهم على أولاد التتار وبيعهم بالبلاد الإسلاميّة»[29]. وفرح فرحا كاد يخرجه من جلده حينما دخل بعض قواد التتار إلى الإسلام، فقد أشاد مثلا بمناقب بركة بان باظوخان وهو الرابع من ملوك الدولة الجنكزخانية لأنّه أسلم «وحسن إسلامه وأقام منار الدين وأشهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وأدناهم منه ... وابتنى المساجد والمدارس»[30] ونقل تفاصيل وصول الوفد الذي أرسله أزبك بن طغولجا وهو التاسع من ملوك هذه الدولة إلى السلطان الناصر يحيطه علما بإسلامه وبعزمه على نشر الإسلام في ربوع مملكته وأظهر ما لقيه من تجاوب وترحاب[31]. وهذا ما يفسّر تلطّف النّويري أحيانا في الحكم على التتار خلافا للفرنج، لأنّ بعض زعمائهم أبدوا رغبة في الدّخول إلى الإسلام واعتناق العقيدة الإسلاميّة.

وللآخر في مدوّنة النّويري وجه يختلف عن هذا الوجه الهمجيّ المتسلّط الذي لاحظناه، إلاّ أنّه يشترك معه في معاداة الإسلام وكره المسلمين ونعني به أهل الذمة. وقد جاء حديث النّويري عنهم في الجزء الثامن من مصنّفه أثناء إشارته إلى الأوضاع الجبائيّة في الديار المصرية. ويستفاد من المعلومات والإفادات التي عرضها أنّ الجباية ضروب فمنها الهلالي وهو عبارة عمّا تستأدى أجوره مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة

(28) راجع على سبيل المثال الصفحات التى عقدها للحديث عن سيرة الملك العادل نور الدين ج 27 ص 152.

(29) نهاية الأرب ج 27 ص 374.

(30) المصدر نفسه والجزء نفسه ص 358.

(31) المصدر نفسه والجزء نفسه ص 375.

من الأدر والحوانيت والحمامات ...» [32] ومنها الخراجي وهو «عبارة عمّا يستأدى مسانهة ممّا هو مقرّر على الأراضي المرصودة للزراعة والنخل والبساتين والكروم والطواحين السنوية التي تدور أحجارها بمياه السيول ...» [33] وما يستأدى من خدم الفلاحين ويسمّى ذلك بمصر الضيافة وبالشام رسم الأعياد والخميس وهو أغنام ودجاج وكشك وبيض [34].

أمّا الجزية «فتجب على الرجال الأحرار العقلاء ولا تجب على صبيّ ولا إمرأة ولا مجنون ولا عبد لأنّهم أتباع وذراريّ» [35] ويستخرجونها سلفا وتعجيلا في غرّة السنة. وفي بعض الأقاليم تستخرج قبل دخول السنة بشهر أو شهرين، وتخصّ طوائف يضبطها مباشر الجوالي على جريدة يبدأ فيها بذكر أسماء اليهود ويثني بالسامرة لأنّهم شعب منهم ويثلّث بالنصارى. وإن كان في عمله طائفة من الصابئة والمجوس ذكرهم بعد النصارى، وفي بعض بلاد الشام تؤخذ الجزية من طائفة تعرف بالشّمسية يوحدون الله تعالى وينكرون نبوّة النبي صلّى الله عليه وسلم».

والنّويري يسعى إلى تقديم معلومات مفصّلة عن مقاييس الجزية وطرق استخلاصها فيكسب أدبه الموسوعي تدقيقا صارما يجلب في نظرنا ثقة المتلقي، فقد ذكر ما يحتاج إليه مباشر الجوالي في كلّ سنة من إلزام رئيس اليهود ورئيس السامرة وقسّيس النصارى أو أسقفهم بكتابة أوراق يسمّونها الرقاع بمن عند كلّ منهم من الرواتب وما لعلّه استجدّ من الطوارىء والنوابت ويعيّن في آخر الرقاع من اهتدى بالإسلام ومن هلك بالموت [36].

---

(32) نهاية الأرب ج 8 ص 228.

(33) المصدر نفسه والجزء نفسه ص 245.

(34) المصدر نفسه والجزء نفسه ص 245.

(35) المصدر نفسه والجزء نفسه ص 242.

(36) نهاية الأرب ج 8 ص 242 ـ 243.

إلى هذا الحدّ يبدو النّويري محايدا، ينقل بموضوعيّة وأمانة [37] شهادة حيّة عن كيفيّة اجتناء الجزية في حكم المماليك، إلاّ أنّنا نقع في خطإ فادح إن نحن اكتفينا بهذا التأويل، ذلك أنّ النّويري يقدّم إلينا عيّنات من الظروف الاجتماعيّة والنفسية التّي كان يعيشها أهل الذمة آنذاك، فلا حقّ لهم مثلا أن يعلوا على المسلمين أبنيتهم ويحجّر عليهم إسماع أصوات نواقيسهم ويتعيّن عليهم إخفاء دفن موتاهم. وقد يضرب الذمي برؤوس الأنامل عند قيامه بالجزية ضربا لطيفا غير مؤلم.

وقد نزّل النويري هذه الممارسات ضمن ما سمّاه بالأحكام الشرعيّة ونقلها دون أن يقرأ فيها إهانة تلحق بالذمي. ولا غرو، فهو لم يشذّ عن رأي المسلمين في هذا الآخر لأنّه عدوّ الدين، وعدوّ الدين أيّا ما كان ولاؤه للسلطة الحاكمة يحترز منه ويضيّق عليه الخناق ويراقبه حتى لا تخامره فكرة التمرّد أو فكرة الإساءة إلى المسلمين.

والحقّ أنّ موقف النويري من هذا الآخر العدوّ الممكن، أو العدوّ المتخفّي لم يكن دائما على هذا النسق من الحذر والتخوّف فهو يعتبر أنّ أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ ورأيه في ذلك رأي المسلمين عامّة حرّفوا ديانتهم مقدرا أنّ معدن الإسلام واليهوديّة والنصرانيّة واحد، لذلك يثني على اليهود الذين أسلموا لأنّهم حقّقوا الاندماج في الآخر المسلم وفرّطوا في عقائدهم الموروثة المحرّفة ونهلوا من المعدن الرباني الصافي. وينسج لهم في موسوعته موقعا متميّزا ويثق بأقوالهم وأخبارهم ومنهم وهب بن منبّه وكعب الأحبار وأبو ثعلبة بن أبي مالك وعبد الله بن سلاّم ومخيريق [38].

وللآخر في نهاية الأرب وجه غير ذينك الوجهين العابسين الشرسين. إنّه الآخر منبع الحكمة ومجال الخبرة، فالنهل من معارفه والاغتراف من

---

(37) لا تغييب عنّا الإشارة إلى أنّ النويري كان كاتب ديوان قبل أن تتعلّق همّته بحبّ الأدب، ولذلك تعدّ شهادته في هذا الموضوع شهادة العارف العليم.

(38) نهاية الأرب ج 16 ص 123 وراجع بحثنا ص 133.

حكمه وتجاربه أمر محمود مستحسن، ينمّي معارف المسلمين ويوسّع آفاقهم. والنويري يمتح من حكمة الأعاجم ويعقد لها مكانة متميّزة، فيودعها بعد الأقوال النقليّة مباشرة. وهذا اختيار له مغزاه، فلم يقحم حكمتهم إقحاما من باب الزينة والترصيع أو من باب سدّ الشغور الحاصل وإنّما أوردها لإيمانه ببعد غورها ومنطقيتها. وتستأثر الحكمة الفارسية واليونانية والهندية بالنصيب الأوفر، والنّويري لا يحفل كثيرا بتسمية أصحابها يقول مثلا : «وقال بعض ملوك العجم»[39] وقد قيل في حكم الهند[40] سئل بعض حكماء الروم[41]. فالمهمّ لديه الاستفادة من جوهرها. على أنّه في بعض المواقع من نهايته يعتني بتسجيل الحكمة مرفوقة باسم صاحبها فمن الفرس ذكر أنوشروان، وبزرجمهر، وبهرام جور، ومن اليونان ذكر أرسطاطاليس وسقراط وإفلاطون. والنّويري لم يظفر بهذه المعلومات نتيجة بحث ميداني مباشر لأنّه لم يرحل إلاّ قليلا نحو دمشق وطرابلس الشام، وإنّما قد وجد ضالّته في التصانيف التّي توفر على مطالعتها فاستقى منها.

التثمين :

1 ـ لقد كان الآخر في بعض تجلّياته عدوّا لدودا لا يعرف المهادنة والتّراجع ومع ذلك قدر الأنا على الصمود. والفضل في ذلك ونحن نلتزم بحدود القرن الثامن الهجري يعود إلى حركة الإنقاذ التّي أقبل عليها الأنا باندفاع لافت للنظر، وقد بدأت ملامح هذه الحركة منذ استرداد بيت المقدس (589 هـ مع صلاح الدين الأيوبي) ولسنا الآن في مجال يسمح بحصر المسؤوليات على وجه التدقيق، ولكنّنا أدركنا في ضوء ما سبق أنّ عمل المماليك السياسي والعسكري كان جنبا إلى جنب مع عمل الموسوعيين الفكري. فقد ورث المماليك تركة بغداد[42] بعد سقوط

---

(39) نهاية الأرب ج 3 ص 256.

(40) المصدر نفسه ج 6 ص 133.

(41) المصدر ذاته ج 6 ص 131.

(42) راجع مقال بلاشير المذكور ص 8.

الخلافة وتزعّموا العالم الإسلامي فرفعوا شعار الجهاد والأخوة الإسلاميّة وأضحوا في نظر المسلمين الأقدر على الدفاع واسترداد ما أخذ [43]. على أنّ النّويري يضيف عاملا آخر وهو لا يأتي في ذلك بجديد مؤدّاه أنّ الأمة (الأنا) تستلهم صمودها من القرآن.

2 - إنّ انكفاء الأنا على ذاته في حركة دفاع عن الكيان الحضاري ولّد حركة موسوعيّة تعتمد على الجمع والتّركيم فتحت الباب لايداع المكرّرات والمردّدات (الموسوعات تكرّر بعضها بعضا) فاستحالت عمليّة الإنقاذ الفكري تدريجيّا إلى عمليّة محافظة وإبقاء على ما كان، خلقت بدورها أرضيّة تحثّ على اجترار الماضي واستعذابه [44] وتناوئ التجديد وتكره التنقيب بذريعة الانصراف أوّلا وقبل كلّ شيء إلى جمع الموروث والمحافظة عليه قبل أن يتبدّد.

3 - إنّ حضور الآخر على تلك الدرجة من الشراسة والحدّة التي ألمحنا إليها، لم يكن حافز تقدّم يدفع بالأنا نحو البحث عن سبل مضاهاة الآخر/العدوّ. فلم نلحظ في الأدب الموسوعي قرينة تدلّ على أنّ نيّة الأنا تتّجه نحو سبر قدرات العدوّ والاطّلاع على عالمه وعلى نفسيته وطرق عيشه للوقوف على إيجابياته وسلبياته وإدراك نقاط ضعفه. كلّ ما سجلناه هو لعن هذا الآخر والنّفور منه والإعراض عن الخوض في تفاصيل تهمّ حياته ونظمه بتعلّة أنّه من دار الكفر والباطل [45]. وحريّ بنا في هذا المساق أن نستنتج البون الشاسع بين حركة التدوين الأولى

---

(43) راجع مقال : السلاطين المماليك : قوّة سياسيّة واقتصاديّة في الموسوعة العالمية (باللغة الفرنسية Encyclopœdia Universalis ج 8 ط باريس 1990.

(44) راجع قولة شارل بالا في مقدمة التّربيع والتّدوير للجاحظ ص 15 وملخصها أنّ الأمة العربيّة الإسلاميّة متعلّقة بالتقاليد وتميل إلى إيثار الرتابة والمحافظة.

(45) أعرض العمري عن الاهتمام بممالك الكفار في موسوعته الموسومة بمسالك الابصار.

والثـانيـة. كـان الأنا في الحـركـة الأولى قـويّا، يتـطلّع إلى الآخـر بلا خـوف ويتـوق بكلّ السبل إلى الإسـتفـادة منه في كلّ المجـالات [46]، وفي حـركـة التّدويـن الثانية كان الأنا ضعيفـا منينا يخشـى الآخر لأنّه عدوّ ضـارّ، لذلك انكفأ على ذاته للمحافظة على ذاته.

(46) يمكن أن نذكـر في هذا السّـيـاق الجـاحظ الّذي آمن بقـيـمـة الكتـاب ودعـا بحـمـاس ظاهر إلى ضـرورة التّـدوين. كمـا أنّه قـد جـمع بين تقـييـد شـوارد المعـرفـة العـربيـة الإسلاميّـة وتجـمـيع نصوصها وبين الاستفادة من مـوروث الحضارات الأخرى إذ لا يخفي أنّ هذا الرجل كان يؤمن إيمانا راسخا بضرورة المثاقفة والانفتاح الحضاري.